المعايير المحددة للسلوك الشاذ

Scanned by CamScanner

تعريف علم النفس المرضي /

علم النفس المرضي هو أحد ميادين علم النفس التطبيقية وهو علم دراسة كل ما يفسر ويوضح الإضطراب الذي ينتاب النشاط العقلي والسلوك الإنساني في حالات المرض.

يقول كارل ياسبرز "المدرسة الظاهراتية": إن علم النفس المرضي يجب أن يفهم ويوضح العرض المرضي لا أن يفسره فقط لأن التفسير محاولة وصفية، أما الفهم والإيضاح فيتطلبان حسب رأيه - التقمص وإحلال الدارس محل المدروس أي إحلال المعالج أو الطبيب محل المريض أو العميل حتى يفهم الطبيب حقيقة المرض وطبيعة معاناة المريض. وهذا الأمر يتطلب أو يقتضي من الطبيب النفساني دراسة وفهم خلفية المريض ومعنوياته واتجاهاته الإجتماعية ومعتقده الديني وصفات شخصيته ومستوى طموحه وذكائه وظروفه.

مفهوم الشذوذ "المرض النفسي"

يظهر لنا سلوك الناس مقبولاً أحياناً، وغير مقبول أحياناً أخرى. ففي الحالة الأولى نظهر الإرتياح دون أن نطلق أي حكم خاص باعتباره سلوك عادي لا يثير أي إشكال، أما في الحالة الثانية فغالباً ما نقف موقف المتغرب أو الناقد لهذا السلوك ونطلق عليه أوصافاً أو نعوتاً مثل: سلوك غير عادي أو سلوك غريب، أو منحرف أو شاذ.

ولتوضيح معنى الشذوذ نسوق الأمثلة التالية:

- إن الخوف من الناس يتكرر في مناسبات متعددة في حياة الأطفال والمراهقين وحتى الراشدين، وليست حالة الإمتحانات الشفوية وإلقاء الخطب أمام الجمهور إلا أمثلة على ذلك.

فهل تكون هذه الحالات كلها شذوذاً؟ أم يكون بعضها فقط؟

Scanned by CamScanner

- إننا نلاحظ قضم الأظافر عند بعض الأطفال ولا نلاحظ ذلك لدى جميعهم، فهل نحمله أمام سلوك شاذ عن ذلك البعض؟

- كما أنه ظاهرة مص الأصابع لدى أطفال في سن أكبر من 6 سنوات كمص الإبهام قبل الأكل وبعده وقبل النوم وفي مناسبات أخرى وذلك الضيعة الذي نلاحظه على الأهل لمن مايرى الآخرون سلوك أطفالهم، فهل هذه العادة سلوك شاذ؟

- يقرأ الناس عن الحب ويكتبون عنه من حيث هو عاطفة إنسانية وكثيرًا ما يتمناه الناس لأنفسهم، فإذا تحدثنا عنه أشرنا إلى العطف والحنان الذي يرافقه، ولكننا مع ذلك نسمي حب نفس الجنس "الجنسية المثلية" HOMOSEXUALITÉ شذوذًا، كما نسمي التلذذ بتعذيب المحبوب من أي من الجنسين (السادية أو الصادية) SADISME، شذوذًا (والسادية نسبة إلى النبيل الفرنسي "المركيز دي ساد" (1814-1740) الذي كان لأغراض جنسية يحب تعذيب ضحاياه بطرق وحشية أثيرت معها مجنونا، أصبح علمًا على القسوة في ممارسة الجنس، ورمزًا للذين لا يشبعون جنسيا إلا بتعذيب شريكهم في الجنس - سواء جسميا بالضرب والجلد والعض والقرص PINCHING أو معنويا بالإذلال والإهانة العلنيين).

فلماذا يكون هذا النوع من اللذة شذوذًا؟ بينما يقدر الناس اللذة التي يوفرها الحب الإنساني؟

- ثم إننا كثيرا ما نمتنع أو نتحاشى الإمساك بشيء وذلك تجنبا لقذارته أو عدم نظافته ونعتبر بأن هذا الوضع أو هذا الإجراء (ضروري الوقائي) ولازم، لكننا مع ذلك نقول عن الشخص الذي يسعى وراء الماء والصابون لغسل يديه كلما ظن شيئا (وسواس قهري OBSESSION) بأن عمله هذا شاذ.

إن الحدود والفواصل بين السواء والشذوذ غير واضحة لهما دائما

Scanned by CamScanner

فقد يكون الشذوذ خروجاً عن عادة عادية أو جارية، أو أنه مخالفة لمفهوم الأغلبية، وهذا لا يشكل علامة للمرض النفسي من وجهة النظر السيكولوجية، فبعض العباقرة شواذ العادات والتصرفات وعظماء المصلحين شواذ ومخالفون لعادات جماعاتهم القديمة.

والطبيعي أو السوي قد يعني المعدل أو الوسط، فالذكاء الطبيعي لدى الإنسان هو معدل الأغلبية، أو هو الوسط بين الذكاء المفرط والغباء. إلا أن الشخص العبقري والحاد الذكاء لا يمثل المعدل بين ذكاء المجموع ومع ذلك فإنه طبيعي أيضاً. أما الشخص المتخلف عقلياً فلا يقع في الوسط وهو أقلية كالعبقري إلا أنه شاذ ومريض. والندرة أو القلة ليست مرضاً دائماً، فما أندر العباقرة وما أقل الأنبياء وعظماء المصلحين، وما أندر الأصدقاء المخلصين... إلخ. قال بعضهم:

ما أكثر الأصدقاء حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليل

وقال آخر:

ثلاثة أشياء ظهورهن خفي الغول والعنقاء والخل الوفي.

- غرابة السلوك إذا لا يعني بالضرورة (مطلقة)، فهو نسبي يقاس باعتبارات ومفاهيم الثقافة المحلية.

فالمرض النفسي إذا لا يعني بالضرورة الندرة أو الغرابة في السلوك إلا إذا كان مقارناً ومقاساً بالنسبة إلى ثقافة معينة ومجتمع خاص بحيث يؤدي استمرار وجوده لدى الفرد إلى اضطراب في شعوره بالراحة والصفاء والأمن وإلى الإخلال بكفاءته الإنتاجية وإلى تشويش نظرته إلى الناس وإلى العالم من حوله وإلى اضطراب علاقته مع محيطه الاجتماعي الذي يعيش فيه ويتفاعل معه.

والواقع أننا حين نسأل عن الشذوذ نجد أنفسنا أمام عدد كبير من الإجابات. فهو تارة ما يخالف السواء أو الاستواء، وهو تارة أخرى الاضطراب النفسي الشديد

Scanned by CamScanner

أو هو السلوك الذي يبعد عن درجة غير مألوفة من التناسق في الشخصية، وهو أحيانا السلوك غير المألوف أو السلوك المنطرف إلى آخر ما هنالك من إجابات.

يعرف وات "WATT" سيكولوجية الشذوذ قائلاً: "إن ميدان سيكولوجية الشذوذ يمكن أن يوصف بصفة عامة بأنه دراسة ردود أفعال الشخصية المضطربة تجاه الحياة ومناسباتها".

إن وات WATT حين يحاول تفسير معنى كلمة "مضطربة" يقول: "نعني بها الأشخاص الذين تضطرب حياتهم بحيث يجدون أنفسهم فلقين مرتبكين غير سعداء".

إن هذا التعريف لسيكولوجية الشذوذ من طرف وات ومعه التعاريف الأخرى الكثيرة هي في حاجة إلى أسس ومعايير تسمى بها الحالة النفسية بالشاذة، كما أن كلمة التطرف التي تستعمل في تحديد الحالات الشاذة، وكلمة الاعتدال التي يستعملها البعض في تحديد الحالات السوية تحتاجان إلى معيار به نتأكد من وجود الاعتدال أو التطرف فالتطرف تطرف بالنسبة لشيء أو نموذج، والاعتدال اعتدال بالنسبة لمعيار أو نموذج أيضا، فما هي إذن المعايير أو الأسس التي تحدد الشذوذ؟

① الإتجاه الذاتي:

من مؤيدي هذا الإتجاه (MOSS موس) و (HUNT هانت) فنجدهما في كتابهما عن أساس سيكولوجية الشذوذ إلى تحليل البناء الشخصي لكل منا لنرى الآراء التي نعلنها عن سوية هو لشاذ ومن هو السوي، ننظر إلى الناس ونلاحظ تصرفاتهم وتصرفاتهم، وكثيرا ما نقول عنهما أنها سوية عندما تنسجم مع أفكارنا وآرائنا الذاتية، أو نقول عنهما أنها غير سوية حين لا تنسجم أي أنها تختلف مع هذه الآراء والأفكار، وهكذا فإننا

تحكم ذاتي في التحدث عن السواء والشذوذ.

إن هذا التحديد للسلوك الشاذ والسوي، الذي انتهى إليه كل من Hunt و Moss، كما قد يذهب إليه العديد من الناس في الحياة اليومية لا يترك مجالاً للكشف عن معيار عام نميز به بين ما هو شاذ وما هو سوي، قد يكون العالم المشار إليهما على صواب فيما ذهبا إليه بأنه معظم الناس ذاتيين الآن، لا نرى ضرورة لتعميم هذا الوضع على البحث العلمي، وخاصة حين يكون البحث باحثاً وراء الأسس المشتركة بين الحالات المتماثلة بغية وضع تلك الأسس على شكل معيار عام.

② المعيار الاجتماعي في تحديد الشذوذ:

يعتمد هذا المعيار على الأسس الاجتماعية في بحث الطبيعة البشرية في المجتمع. كما يراه أصحاب هذا المعيار أو الاتجاه - يضم مجموعة من العادات والتقاليد، والآراء والأفكار، التي تسود سلوك الأفراد الذين يتألف منهم هذا المجتمع فإذا خرج أحد الأفراد عن هذه المعايير التي تسود المجتمع أعتبر سلوكه شاذاً، وكذا يكون التوافق بين سلوك الأفراد وقيم المجتمع إما سواء أو سواء وبكونه عدم التوافق شذوذاً.

وحيث تأتي الدراسات الأنثروبولوجية، وتضع كل هذه العادات والتقاليد والآراء التي تسود المجتمع ضمن كلمة "الثقافة" وتشير بها إلى كل ذلك التراث العام من أفكار وعادات التي ينقلها المجتمع إلى الأجيال الجديدة فيه، فإنه هذه الدراسات الأنثروبولوجية ترى الشذوذ في السلوك الذي لا يتفق ونمط الثقافة السائد في المجتمع، بينما ترى السواء في تطابق سلوك الفرد مع النمط الثقافي في مجتمعه

(← راجع كتاب "دراسات اجتماعية نفسية في جنوب السودان" لمؤلفيه: مصطفى سليمي وعبد اللطيف فؤاد إبراهيم / دار مصر للطباعة 1965.
عن قبائل زوني ZONI، كواكيوت KWAKUTE)

Scanned by CamScanner

إن هذا المعيار الإجتماعي يؤكد لنا أن ما هو شاذ في مجتمع ما قد يكون سواء في مجتمع آخر، بالإضافة إلى أن هناك أشكالا من الشذوذ تعتبر شذوذا في كافة المجتمعات، وبناء على ذلك نجد أن المعيار الإجتماعي رغم أهميته لا يكفي وحده كأساس في تحديد الشذوذ.

③ المعيار الإحصائي:

يعتمد هذا المعيار على فكرة أن الطبيعة تميل بصورة عامة إلى الإعتدال والتوسط بالنسبة لما تنطوي عليه من الحوادث وظواهرها الكمية، وأن أكثر الحالات تقع عادة حول المتوسط بينما لا يقع في المكان المتطرف إلا القليل منها. فإذا أخذنا فترة الحياة بالنسبة للإنسان في بلد ما، وكان متوسط الأعمار في هذا البلد خمسين (٥٠) سنة، فإننا نجد الأكثرية من أفراد هذا البلد تعيش لتصل إلى ذلك المتوسط، بينما يقل نسبيا من يموت صغيرا، ويقل نسبيا من يعمر طويلا... إن هذه الفكرة تمثل إحصائيا منحنى (قوس) قوس GUESS وينظر إلى التوسط على أنه الإستواء أو الإعتدال، وإلى التطرف في شدة الإنحراف عن المتوسط على أنه الشذوذ.

إن هذا التحديد الإحصائي للشذوذ يبقى صحيحا ما دمنا نأخذ بالأرقام، أما إذا اتجهنا إلى دراسة الذكاء أو التكيف الإجتماعي أو ما شابه ذلك من الظواهر النفسية فإن الأمر يختلف. بحيث أننا لا نسمي العبقري شاذا عادة بل نلحق كلمة الشذوذ بالضعيف أو المتأخر أو المتخلف عقليا ولا نسمي الممتاز في تكيفه الإجتماعي شاذا.

وإذا أردنا أن نفسر المعيار الإحصائي من الناحية السيكولوجية أمكننا القول أن سعي الإنسان إلى ما يلذ له أمر غالب عليه، والفارقون جدا في السعي وراء ملذاتهم مهما كانت العواقب قليلون نسبيا، والمنكرون لما يجلب لهم اللذة

قليل نسبيا أيضا. فإذا أخذنا كمثال من يسعى إلى اللذة عن طريق تعذيب المحبوب، أيتا أن نسبة وجوده قليلة، ومن هذه الناحية يكون هذا النوع من السلوك شاذا. وكذلك ظاهرة الميل إلى الإجرام، وعرض الوسواس، والعته أو الخرف أو مرضية من حيث النسبة المئوية لتكرارها أو وجودها.

إننا نلاحظ في هذا التحديد الإحصائي اتجاها علميا مناسبا، إلا أننا نسأل عما إذا كان هذا المعيار كافيا، فهل يكون السلوك شاذا إذا كان نادر الوقوع؟ أم هو في الواقع نادر الوقوع لكونه شاذ؟

إن أصحاب المعيار الإحصائي يجيبون على ذلك بأن النادر الحدوث من السلوكات أو التصرفات أو الظواهر النفسية شاذ وهي كانت مذمومة.

④ المعيار السيكولوجي الموضوعي في تحديد الشذوذ:

إن السلوك في جميع أشكاله عبارة عن عملية دينامية تحركها الدوافع الكامنة وراءها من أجل غرض أو مجموعة أغراض ومن هذه الناحية يكون كل سلوك ذا مظهر وظيفي. فإذا اعتبرنا السلوك السوي هو الأصل باعتباره القالب، وقبلنا نقطة انطلاق التحديد الإحصائي هنا، فإننا نعتبر الشذوذ انحرافا، ولكنه بعض هذا الانحراف مقبولا لأن منطقة التوسط واسعة، ويجب إذن أن ننظر إلى الشذوذ على أنه الانحراف الشديد، فإذا رجعنا إلى الوظيفة في العملية الدينامية التي تنطوي عليها السلوك، قلنا أن الشذوذ يكمن في الاضطراب الشديد. إلا أننا نسأل هنا أين تبدأ حدود هذا الاضطراب الشديد؟ وكيف ندرك وجوده؟

يقول جاسترو JASTRO في حديثه عن الشاذ والسوي:

Scanned by CamScanner

« يكمن الشذوذ في تلك الحالة المختلفة عن غيرها والتي يقودنا تحليلنا لها إلى معرفة حول طبيعتها تكشف لنا هي نفسها عن المعنى الحقيقي للشذوذ ».

إن كل حالة نفسية عبارة عن عملية دينامية تؤدي وظيفة وتظهر في عدد من المظاهر يمكن للملاحظ أن يحيط بها فلا يكفي في هذه المظاهر أن تكون نادرة لوقوع حتى نسميها شذوذا. كما لا يكفي فيها لتكون مختلفة عند المألوف كي نسميها شذوذا. بل أنها تتسم بالشذوذ حين يقودنا التحليل العلمي لها إلى التأكد من وجود الإضطراب الوظيفي الشديد فيها، هذا هو جوهر الأساس في الشذوذ حسب المعيار السيكولوجي. ولكن السؤال الذي يبقى مطروحا هو كيف ندرك وجود الإضطراب؟ فيتمثل جوابنا في أن تحليل الحالة النفسية أمر ممكن حيث نستطيع تحليلها في مظاهرها، ووظيفتها، ودينامية. وقد نعتمد في ذلك إما على دراستنا (ملاحظتنا) المباشرة لهذه المظاهر وقد نضمها إلى ملاحظات الآخرين (الملاحظة بالمشاركة) وقد نعتمد الإستجواب أو المحادثة طريقة، وقد نعتمد على المقاييس المختلفة، وقد نجمع بين أكثر من طريقة واحدة، وبذلك كله نستطيع إدراك وجود الإضطراب.

أما السؤال الثاني أين تبدأ حدود الإضطراب الشديد؟ فنقف فيه عند الوظيفة ومقدار الأثر الذي تتركه حالة الإضطراب في سير العمليات النفسية الأخرى. إن عددا غير قليل من الناس يمرون بفترات تنتابهم فيها بعض الهواجس والوساوس. إلا أن هذه الحالة من الإضطراب قد تمر دون أن تخلف أثرا يذكر في سير الحياة النفسية لأصحابها حتى حين تمس المناسبة موضوع الوساوس، أما حين يتسلط الوساوس ويعيق الفعالية النفسية ويعطلها عن مجراها الأصلي النسبة لوظائفها من حيث هي عمليات داخلية أو من حيث الوسائل التي تستعملها، فإن الإضطراب يعتبر عندئذ شديدا أو حالة شذوذ واقعية.

Scanned by CamScanner